اللغة العربية في تشاد خلال الاستعمار الفرنسي 1900–1960: دراسة تاريخية لغوية

The Arabic Language in Chad During French Colonial Rule, 1900–1960: A Historical-Linguistic Study

د. أحمد إبراهيم حران: أستاذ مساعد (المجلس الإفريقي الملغاشي للتعليم العالي)، وأستاذ النحو والصرف بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة أدم بركة بأبشة – تشاد.

Dr. Ahmat Ibrahim Harane: *Assistant Professor (African and Malagasy Council for Higher Education – CAMES), Professor of Arabic Grammar and Morphology, Department of Arabic Language and Literature, Adam Barka University of Abéché, Chad.*

Email: ahmatib995@gmail.com

DOI https://doi.org/10.56989/benkj.v6i10.2140

تاريخ الاستلام: 2026-08-13 تاريخ القبول: 2026-09-11 تاريخ النشر 2026-10-01

الملخص:

تناولت الدراسة واقع اللغة العربية في تشاد خلال فترة الاستعمار الفرنسي، وتسلط الضوء على التحولات التي طرأت عليها نتيجة السياسة اللغوية الاستعمارية. وهدفت إلى معرفة التحديات التي تمثلت في تهميش اللغة العربية وإضعاف حضورها في المجالات الرسمية والتعليمية. كما تطرقت الدراسة إلى واقع اللغة العربية في عصر ما قبل الاستعمار، وهو عصر الممالك الإسلامية في تشاد، وأثبتت أيضًا أن وضعها في الممالك الثلاث كان جيدًا. وقد اعتمدت الدراسة المنهج التاريخي والمنهج الوصفي التحليلي، وتوصلت إلى أن الاستعمار الفرنسي في تشاد لم يكن مجرد هيمنة سياسية؛ بل أعدَّ مشروعًا لغويًا وثقافيًا استهدف إعادة تشكيل الهوية التشادية. ورغم الضغوط الاستعمارية، حافظت اللغة العربية على حضورها، ولم تنجح محاولات المستعمر بشكل كامل؛ إذ إن غالبية الشعب التشادي يتحدث العربية الدارجة. ولقد استطاع علماء المسلمين إبطال الكثير من المخططات التي تهدف إلى إضعاف اللغة العربية وتذويبها، ولم يستطع المستعمر الفرنسي إقصاءها عن المجتمع التشادي، وإن نجح خلال هذه الفترة في جعل لغته هي الرسمية للبلاد، فلم ينجح في فرنسة لسان المواطن. وأوصت الدراسة بضرورة وضع حلول وخطط مستقبلية من خلال معايير لدراسة العربية وتطويرها، والانتقال بها من الحالة التقليدية القائمة على الحفظ والتلقين إلى التعليم التفاعلي الحديث القائم على مهارات التفكير، والاهتمام بدراسة القرآن الكريم وتطوير الخلاوي القرآنية؛ بحيث تكون الدراسة فيها بمنهجية تربوية تواكب روح العصر، أي: مصاحبة لبرامج ترفيهية، وإقامة مراكز تدريبية مهنية داخل الخلاوي القرآنية.

الكلمات المفتاحية: اللغة العربية، تشاد، الاستعمار الفرنسي، السياسة اللغوية، الممالك الإسلامية، التعليم العربي، فرنسة التعليم، الهوية الثقافية، الصراع اللغوي، الثقافة الإسلامية.

Abstract:

The study addressed the reality of the Arabic language in Chad during the period of French colonialism and highlights the transformations that occurred as a result of the colonial language policy. It aimed to identify the challenges represented in the marginalization of the Arabic language and the weakening of its presence in official and educational fields. The study also addressed the reality of the Arabic language in the pre-colonial era, which was the era of the Islamic kingdoms in Chad, and also demonstrated that its status in the three kingdoms was good. The study adopted the historical method and the descriptive-analytical method, and concluded that French colonialism in Chad was not merely political domination; rather, it developed a linguistic and cultural project aimed at reshaping Chadian identity. Despite the colonial pressures, the Arabic language maintained its presence, and the colonizer's attempts were not completely successful, as the majority of the Chadian people speak Chadian Arabic. Muslim scholars were able to thwart many of the plans aimed at weakening and eradicating the Arabic language, and the French colonizer was unable to exclude it from Chadian society. Although he succeeded during this period in making his language the official language of the country, he failed to Frenchify the language of the citizen. The study recommended the need to develop future solutions and plans based on standards for studying and developing Arabic, and to move it from the traditional state based on memorization and rote learning to modern interactive education based on thinking skills, as well as to pay attention to the study of the Holy Qur'an and develop Qur'anic schools (Khalwas), so that education therein would follow an educational methodology that keeps pace with the spirit of the age; that is, accompanied by recreational programs, and the establishment of vocational training centers within the Qur'anic schools (Khalwas).

Keywords: Arabic Language, Chad, French Colonialism, Language Policy, Islamic Kingdoms, Arabic Education, Educational Frenchification, Cultural Identity, Linguistic Conflict, Islamic Culture.

المقدمة:

إن دراسة اللغة العربية وغيرها من اللغات من الأهمية بمكان؛ إذ الحق أن اللغة وسيلة لتحقيق التواصل بين أفراد المجتمع والتعبير عن الأغراض والمقاصد، ولذلك يكون ارتباط الفرد بها ارتباطًا شديدًا في مجتمعه، وهي تعكس وجود هويته وجزءًا من شخصيته؛ بل هي وعاء للفكر الإنساني وتجاربه عبر التاريخ، وقد سجلت هموم الإنسان وتطلعاته في رحلة وجوده على هذا الكوكب من بدايتها إلى نهايتها، فالوقوف على دراسة الأحوال التي مرت بها أمر يتطلب من المهتمين بها دراستها من جوانب متعددة.

وتُعد اللغة من أهم الظواهر الإنسانية التي صاحبت الإنسان منذ نشأة المجتمعات وتطورها، إذ لم تكن مجرد وسيلة للتعبير عن الأفكار والمشاعر، وإنما كانت أداة أساسية لبناء العلاقات الاجتماعية ونقل المعارف والخبرات بين الأجيال. فمن خلالها استطاع الإنسان أن يحفظ تراثه، وينقل عاداته وتقاليده، ويعبّر عن تصوره للعالم من حوله، كما أصبحت اللغة وسيلة لحفظ الذاكرة الجماعية للمجتمعات وتوثيق مراحل تطورها وتحولاتها المختلفة. ولذلك فإن دراسة اللغة في سياقها التاريخي والاجتماعي والثقافي تساعد على فهم كثير من مظاهر الحياة التي عرفتها المجتمعات عبر مراحلها المختلفة.

وتتجاوز أهمية اللغة الجانب الاتصالي إلى ارتباطها الوثيق بالهوية، فاللغة تمثل أحد أبرز المكونات التي يستند إليها الفرد والجماعة في التعبير عن خصوصيتهما الثقافية والحضارية. ومن خلالها تتجسد مظاهر الانتماء، وتتوارث الأجيال الموروث الثقافي والفكري والديني، كما تؤدي دورًا مهمًا في المحافظة على الخصائص التي تميز مجتمعًا عن غيره. ولهذا فإن أي تحول يطرأ على اللغة أو على مكانتها في المجتمع لا يمكن النظر إليه بمعزل عن التحولات التي تصيب البناء الثقافي والاجتماعي العام، إذ إن تغير موقع اللغة في التعليم أو الإدارة أو الحياة العامة قد ينعكس بصورة مباشرة أو غير مباشرة على أنماط التفكير والتواصل وعلى طبيعة العلاقة بين أفراد المجتمع وموروثهم الثقافي.

وتكتسب دراسة اللغة أهمية أكبر عندما يتعلق الأمر بمجتمعات تتعدد فيها اللغات والثقافات، حيث تتداخل اللغات في مجالات الحياة المختلفة، وتتباين وظائفها ومكانتها بحسب الظروف التاريخية والسياسية والاجتماعية التي مر بها المجتمع. ففي مثل هذه البيئات قد تكون لغة ما مرتبطة بالدين أو الثقافة، بينما ترتبط لغة أخرى بالإدارة أو التعليم أو المؤسسات الرسمية، الأمر الذي يجعل دراسة الواقع اللغوي مدخلًا مهمًا لفهم طبيعة العلاقات التي تنشأ بين اللغات المختلفة، والعوامل التي تؤثر في انتشار لغة معينة أو تراجع حضور لغة أخرى.

إشكالية الدراسة:

تتمثل في السؤال التالي: هل استطاع الاستعمار الفرنسي تشكيل الهوية المجتمعية من خلال فرض اللغة الفرنسية وتهميش اللغة العربية؟ وكيف ظلت العربية صامدة طوال هذا الصراع مع اللغة الوافدة؟ وهل هناك جهود مبذولة للحفاظ على الهوية الثقافية والدينية للشعب التشادي؟ وما الاستراتيجية لوضع سياسات لغوية متوازنة تعترف بالتعدد اللغوي وتعزز دور العربية في التعليم والإدارة؟

منهج الدراسة:

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي الذي يصف الظواهر والأحداث التاريخية التي حصلت إبان فترة الاستعمار الفرنسي، والوصفي التحليلي الذي يقوم بوصف السياسة اللغوية التي اعتمدتها فرنسا في نشر اللغة الفرنسية بالقوة ومحاربة اللغة العربية وتهميشها.

أهداف الدراسة:

هدفت الدراسة إلى معرفة وضع اللغة العربية في ظل الاستعمار الفرنسي، وتحليل السياسات في تهميش اللغة العربية وإضعاف حضورها وتفاعلها في المجالات الرسمية والتعليمية، وفي المقابل تناولت الدراسة استعراض مكانة اللغة العربية قبل الاستعمار، حين كانت اللغة الرسمية للممالك الإسلامية، بجانب أنها لغة الدين والتعليم والتجارة، كما تسعى إلى معرفة حقيقة مظاهر التراجع التي عرفتها خلال الاستعمار.

أهمية الدراسة:

سعت هذه الدراسة إلى رصد وتحليل واقع اللغة العربية في تشاد خلال فترة الاستعمار الفرنسي، كما تكشف أثر السياسات الاستعمارية في مخططاتها ووظائفها ومؤسساتها التعليمية، وتسهم في توثيق جانب من الجوانب التاريخية واللغوية والثقافية في تشاد، كما تسعى أيضًا إلى تقريب الفهم من جذور التحديات والفرص التي تواجه اللغة العربية في الوقت الحاضر؛ بما يخدم الباحثين وصنّاع القرار في مجالات اللغة والتعليم والثقافة.

المبحث الأول: وضع اللغة العربية قبل الاستعمار

أولا: تعريف العربية:

إن مصطلح اللغة العربية، كأي مصطلح آخر، له تعريفه من حيث اللغة والاصطلاح. أما من حيث التعريف اللغوي، فجاء في لسان العرب لابن منظور: «أن اللغة على وزن فُعْلَة من لغوت، أي: تكلمت، وأصلها لغوة ككرة وثُبَة، كلها لاماتها وواواتها، وقيل: أصلها لَغِي أو لَغْوَة، والهاء عوض

عن لام الفعل، وجمعها لُغًى مثل بُرَة، والجمع لغات أو لغوات» (ابن منظور، ج1، ص25). والقرآن الكريم يسمى اللغة لسانًا، وقد وردت لمعنيين:

- أولًا: الآلة التي يتكلم بها الإنسان، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: 8–9].
- ثانيًا: اللغة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: 4]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: 12].

أما تعريف اللغة اصطلاحًا، فقد اختلف العلماء قديمًا وحديثًا في تحديد تعريف محدد للغة، ويرجع ذلك إلى ارتباط اللغة بكثير من العلوم. وأشهر تعريف لها تعريف ابن جني بأنها: «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم» (ابن جني، ج1، ص. 34).

ومنها تعريف ابن خلدون: «اعلم أن اللغة في المتعارف عليه، هي عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد، بإفادة الكلام، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان، وهو كل أمة بحسب اصطلاحاتها» (ابن خلدون، ج1، ص. 783).

ثانياً: مقدمة حول واقع اللغة العربية في تشاد

تُعدّ اللغة العربية واحدة من اللغات العريقة في العالم، ويرجع تاريخها إلى ما لا يقل عن ألف وخمسمائة سنة، بالشكل الذي نقلته إلينا المعاجم التي يرجع تاريخ تدوينها إلى نهايات القرن الثاني الهجري وبدايات القرن الثالث الهجري، ولا سيما بعد ظهور صناعة الورق في البلدان العربية. ومن بين هذه التعريفات نجد التعريف الذي ذكره قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية، بأنها: «صورة السلوك الإنساني الشاملة التي تنطوي على الاتصال الرمزي من خلال نسق النماذج الصوتية المتفق عليها ثقافيًا، والذي يحمل معاني مقننة» (الصالح، 1999، ص309).

واللغة العربية تربط بين الماضي والحاضر والمستقبل، وتشكل الطريق الذي تسير عليه الأمة على مدار السنين واختلاف الأفراد، فثباتها يحفظ القيم والحضارة والتراث. فاللغة العربية وسيلة تواصل دينية وخطاب ووعاء فكر وأداة تعبير؛ لأنها لغة القرآن الكريم التي تُعد من وسائل حماية الذات وتخليصها من تبعية اللغات الأجنبية، دون إهمال تعلم بقية اللغات للاستفادة وزيادة الرصيد المعرفي الإنساني، خاصة إذا فرضها الواقع والعولمة (عبران، 2018، ص208).

لقد تباينت آراء الباحثين في وصول العربية إلى تشاد، فإذا رجعنا إلى التاريخ والهجرات العربية في إفريقيا، نجد أن الوجود العربي في إفريقيا يرجع إلى زمن بعيد يسبق مجيء الإسلام؛ بدأت الهجرة العربية القديمة من شبه الجزيرة العربية إلى إفريقيا في الألف الرابع قبل الميلاد على أقل تقدير (بوبة،

2003، ص527). وهذا ما أكده الدكتور عمر الماحي بقوله: «لقد سكن العرب واللغة العربية منطقة الساحل الإفريقي قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بقرون طويلة؛ حيث تعاقبت الهجرات نحو بحيرة كوار "تشاد" على وجه الخصوص لموقعها الاستراتيجي في قلب القارة الإفريقية، ثم تعزز وجود العرب واللغة العربية وتطورت في منطقة الساحل الإفريقي بدخول سنة 43هـ. 666م» (الماحي، 1998، ص65). وذكر الأستاذ محمد المختار سيدنا في ورقته أن دخول اللغة العربية كان سابقًا على دخول الإسلام.

أما اللغة العربية، فكان حضورها في تشاد سابقًا على دخول الإسلام نتيجة للهجات القبائل ذات الأصول العربية وما أحدثت ـ بفعل التمازج العرقي والثقافي ـ من تداخل لغوي، ودور التجار العرب الذي عززته سلطتهم الاقتصادية وسندهم الحضاري المهيمن يومئذ، واتصالهم بالنخب المحلية، وإن كان العامل الحاسم الذي مثّل نقلة كمية ونوعية في حضور العربية وجعلها أداة تعليم أهلي ناجح وفعال في تشاد هو الإسلام (المختار، 2003، ص581).

ثالثاً: واقع اللغة العربية في الممالك الاسلامية

تمر تشاد الحالية بإمبراطوريات إسلامية منذ القرن الأول الهجري، السابع الميلادي، 46هـ/666م، «ويعتبر الإسلام أكبر وسيلة لتعريف الشعوب التي تعتنقه؛ إذ يقوم صرحه على دعامتين أساسيتين هما القرآن والحديث، وهاتان الدعامتان لا يمكن الوصول إلى فهم مراميهما وكنه مقاصدهما دون معرفة أساليب العرب وضروبها في القول... وحيثما دخل الإسلام انتشرت اللغة العربية انتشارًا عفويًا لحاجة المسلم الماسة إليها وارتباط شعائر الإسلام بها، فاللغة العربية لازمة في تأدية كثير من الشعائر الإسلامية؛ إذ لا تُقبل بغيرها من اللغات؛ ولذلك انتبه أغلب المفكرين إلى العلاقة الارتباطية القائمة بين اللغة العربية والإسلام، فاعتبرهما وجهين لورقة واحدة، ورآها بعضهم كالعلاقة القائمة بين الروح والجسد» (حمدنا الله، 2003، ص167).

وقامت في تشاد ثلاث ممالك إسلامية كانت اللغة العربية فيها هي اللغة الرسمية ولغة الدواوين والخطب والرسائل الديوانية والإخوانية؛ بل لغة الفكر والحضارة والابتكار، واستطاعت هذه الممالك، بفضل الله، تجسيد الروح الإسلامية في سلوك المواطن.

أ . مملكة "كانم برنو" 1078 – 1893م

قامت هذه المملكة في غرب البلاد بالقرب من بحيرة تشاد شرقًا، وتُعتبر أول مملكة قامت في المنطقة، وبسطت سيطرتها ونفوذها السياسي والثقافي والاقتصادي على ما يُعرف بالسودان الأوسط، في الفترة بين 800–1894م. ووصل الإسلام إلى منطقة السودان الأوسط، خاصة حوض بحيرة تشاد، في زمن مبكر من إقليم «فزّان» الذي افتتحه المسلمون في عهد الخليفة عمر بن الخطاب

رضي الله عنه، على يد عقبة بن نافع بن عبد السلام بن عبد القيس الفهري، واحتل إقليما فزّان وكوار مكانة عامة بالنسبة لتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، وكانت لهما علاقات مميزة مع مصر والشمال الإفريقي، واستقر المسلمون فيها وأخذوا يتجرون مع السودان، مارّين بطرق القوافل المتعددة التي كانت تربط السودان بمصر وبلاد المغرب (برمة، 2019، ص27).

ويتضح من ذلك أن اللغة العربية في كانم برنو تعيش حياة مرموقة، لا سيما في القرن الثالث عشر الميلادي؛ حيث كانت هي لغة الدواوين والتأليف وقرض الشعر.

وتجدر الإشارة إلى أن اللغة العربية في المملكة تغلبت على اللهجة المحلية في التعامل الإداري والديني، وذلك يرجع إلى عوامل كثيرة، أهمها: دخول الإسلام تلك المنطقة التي عاشت فترة من الزمن على الوثنية التي لا تخدم الإنسانية بشيء، فإذا بالدين الإسلامي الجديد تتم أسلمة الدولة طوعًا وبسلاسة، وفتحت أعين السكان على المساواة والعدالة والحرية، ومن هنا بدأ الاهتمام والعناية بالقرآن الكريم وتعاليمه، مما يسّر لهم معرفة العربية والتحدث بها والسعي إلى إجادة استخدامها، فكانت سلسة لديهم، وإن كانت اللغة العربية لها وجود من قبل؛ إلا أن القرآن الكريم هو الذي مكّنها لأسباب. ومن تلك العوامل العامل الاقتصادي، والنفوذ السياسي، وإقامة الشعائر الإسلامية، ومنها الذهاب إلى الحج لبيت الله الحرام لأداء الفريضة، وهناك أتيحت لهم فرص اللقاء بكثير من العرب والمسلمين، فحفّزت فيهم دافع التعليم والتعرف إلى أمور الدين والتبحر في علوم الشريعة واللغة العربية.

«وكان ملوكها يفضلون الحج إلى الأماكن المقدسة عن طريق القاهرة، وكانت لهم علاقة وطيدة بالحفصيين في تونس والليبيين في طرابلس والمصريين في القاهرة، وكذا بملوك مالي، وكانوا يستخدمون اللغة العربية في دواوينهم، والشريعة الإسلامية في محاكمهم، وكان الحكم شورى بينهم، ولكن الإمارة وراثية، وقد عنوا بدراسة القرآن الكريم وتعاليمه، الأمر الذي أدى إلى شهرتها ونشر الثقافة الإسلامية فيها» (الماحي، 1982، ص17).

وصل مستوى اللغة العربية في مملكة كانم إلى شرائح المجتمع؛ بل وصل الحال بها إلى أن أصبحت في عهد السلطان أومي جلمي، الذي حكم في الفترة ما بين 1085–1097م، لغة الدواوين في الإدارات المختلفة، ولغة التعليم والقضاء، ولغة التفاهم في الأسواق والمصالح العامة، ولغة التخاطب بين الشعب، وأصدروا بها المراسيم التي عُرفت بالمحارم السلطانية، والتي يصدرها السلطان إلى الذين أسدوا خدمات جليلة للقصر، وكذلك العلماء والدعاة تشجيعًا لهم على نشر الإسلام بلغته العربية، لغة القرآن الكريم (كمال عبيد، 2003، ص334).

ب / مملكة "باقرمي"

تقع مملكة «باقرمي» في الجنوب الشرقي لمملكة كانم، ويُعتبر دخول الإسلام في المنطقة في أواخر القرن الخامس عشر سببًا مباشرًا في قيام المملكة عام 1513م (الماحي، 1982، ص. 17).

وأول حاكم مسلم لهذه المملكة هو السلطان عبد الله بن مالوم، الذي حكم البلاد بين عامي 1561–1602م. وبمجرد دخول الإسلام في المنطقة، عُرّبت الدولة وجُعلت اللغة العربية هي اللغة الرسمية، شأنها شأن مملكتي كانم ووداي اللتين اتخذتا العربية لغة الدواوين الرسمية للمملكة. وكان السلطان عبد الله بن مانو هو أول سلطان مسلم، وهو الذي وطّد أركان الإسلام في البلاد وقوّاه بصورة عامة وعلنية، وجعله دين الدولة الرسمي، وكانت لغتها الرسمية هي اللغة العربية. والجدير بالذكر أن دخول العربية في هذه المنطقة كان قبل دخول الإسلام إليها، بدليل أن الجاليات العربية قد وفدت إلى هذه البلاد قبل تاريخ تأسيس المملكة؛ حيث كانت تقوم بنشر الإسلام في القرى والبوادي وبين الأهالي، حيث كانت تسود المجوسية (زايد، 2017، ص23).

وكانت اللغة العربية في مملكة «باقرمي» تعيش عصرًا ذهبيًا، لا سيما بعد دخول الإسلام فيها، الذي قوّى شوكتها، واستفادت من الحضارة الإسلامية، فأصبحت اللغة العربية هي لغة الدولة الرسمية، بل كانت لغة العلم والتعليم، وكان القرآن الكريم وعلومه في المقدمة؛ لأنه هو المصدر الأول للحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي أيضًا، فاعتنت المملكة به حفظًا وتجويدًا وقراءةً وتفسيرًا، ونتيجة لهذه العناية الفائقة به تطلعوا إلى دراسة علوم الشريعة والعربية، وانتشر العلم في ربوع المملكة، ولم تقتصر النهضة على مملكة باقرمي فحسب، وإنما كان لها الفضل في نقل هذا التأثير إلى وداي ودار فور، «في حين أن مملكة كانم برنو كانت قد ازدهرت لقرون وانتشرت سلطتها انتشارًا واسعًا بفضل حكم سلاطينها المسلمين، ما زال جيرانها الذين أصبحوا فيما بعد مملكتي فور ووداي يتخبطون في ظلام الوثنية» (غوستاف، ص11).

هكذا ازدهرت الثقافة الإسلامية في مملكة باقرمي ازدهارًا كبيرًا؛ حيث تحدث عن هذا الازدهار الرحالة بارث، الذي قام بزيارة إلى المملكة عام 1852م، فوجد بها علماء كبارًا لهم إلمام بالعلوم الشرعية واللغة العربية، وكانوا يقومون بالتدريس والوعظ والإرشاد في القرى والمدن، ويجوبون في شتى أنحاء المملكة لهذا الغرض (زايد، 2017، ص. 23). كما كان لها اتصال قوي بمراكز الحضارة الإسلامية، وهذا مما جعلها تتأثر بمراكز الثقافة الإسلامية كبغداد، والأزهر الشريف، والحرمين الشريفين، واستطاعت أن تقيم علاقات طيبة بمراكز الحضارة المذكورة؛ كما «كانت لباقرمي علاقة ثقافية مع مصر؛ حيث درس عدد من شيوخها في الأزهر الشريف، أمثال سليمان بن محمد (ت: 1806م)، وقد درس الفقه الشافعي، وألف مجموعة من الكتب الشهيرة، أهمها: التجريد وتحفة الحبيب» (عربي، 2003، ص321).

ومما يؤكد لنا أن وضع اللغة العربية في هذه المملكة كان وضعًا جيدًا، أنها اهتمت بالعلم والعلماء كما ذكرنا، ومن ثمار هذا الاهتمام أنها خرّجت الكثير من العلماء الذين تبحروا في كثير من العلوم، ولا سيما علم الفقه واللغة العربية وغيرها من علوم الثقافة. ونذكر من هؤلاء العلماء، على سبيل المثال لا الحصر، الشيخ محمد الوالي، الذي وصفه الدكتور محمد أحمد أبو سحر في كتابه تاريخ الأدب التشادي بأنه: «يعتبر أكبر شعراء هذه المرحلة الذين كان لهم دور عظيم في نشر الثقافة الإسلامية» (أبو سحر، 2018، ص28).

ووصفه محمد بلو بأعجوبة الزمان؛ حيث يقول: «من شيوخ باقرمي العالم العلامة سليمان وابنه النجيب أعجوبة الزمان وطريفة الأوان... الزاهد الورع، الفهامة محمد الوالي لطف الله بهما» (كلود، 1998، ص192).

ولا شك أن هذا الشيخ قام في بيئة مليئة بالعلم والعلماء، ولغة التعليم فيها هي اللغة العربية، وأصبحت البيئة الباقرمية خصبة جعلت من أبنائها قريحة فذة، أكسبتهم ملكة قرض الشعر العربي الذي يعبرون به عن قضاياهم الاجتماعية والسياسية والفكرية والثقافية، على نهج مراكز الحضارة الإسلامية كبغداد والأزهر الشريف والشام. وأصبحت اللغة العربية الأداة التي يعبرون بها عن قضايا مجتمعهم، ووعاءً لثقافتهم وحفظًا لتراثهم المتعدد ذي الهوية الإفريقية والعربية الإسلامية. فكانت لغة التدريس والتأليف. ويقول الدكتور فضل كلود إن للشيخ الوالي «تأليفات عديدة تدل على إحاطته بكثير من الأحكام الشرعية والعلوم الإسلامية، ومن أهم تراثه الذي تركه كتابه المنهل في علم التوحيد، وكتاب الدراية لقراءة النقاية ونظمه على النقاية للسيوطي، وله العديد من القصائد الشعرية في التصوف والنصح والإرشاد تداولها العديد من علماء غرب إفريقيا» (كلود، 1998، ص192).

ج / مملكة وداي

قامت مملكة «وداي» في الجزء الشرقي من دولة تشاد الحالية، وهي مملكة واسعة ومترامية الأطراف، وتحتل موقعًا استراتيجيًا مهمًا باعتبارها جسرًا يربط بين الدول الإفريقية والعربية، وبذلك تشكل جسر عبور بين هؤلاء وأولئك، أضف إلى ذلك أنها تتمتع بأرض واسعة وخصبة، جعلت الكثير من القبائل العربية وغيرها تتدفق إليها سعيًا إلى الكلأ والمناخ ورواج التجارة، وكل ذلك أدى إلى تمركز الكثير من القبائل والوافدين إليها (شرومة، 2004، ص. 2).

ويرجع تأسيس مملكة «وداي» إلى عام 1010هـ/1611م، وقد قامت هذه المملكة بدور كبير في نشر الإسلام وتطوير اللغة العربية والثقافة الإسلامية في أنحاء المملكة وخارجها، كدول الجوار، وهذا يرجع إلى عدة عوامل تمتاز بها عن غيرها من الممالك التشادية الأخرى، ومن هذه العوامل وجود القبائل العربية بكثافة، وموقعها المتاخم للسودان ومصر وليبيا.

كان «عبد الكريم بن جامع» هو الذي وضع اللبنة الأولى لمملكة وداي الإسلامية، وكان والده داعيةً متنقلًا بين القرى المحيطة بالمملكة، واستطاع أن يُدخل الإسلام في نفوس أعداد غفيرة من أهالي المنطقة، وشرع في تدريس القرآن الكريم حتى أصبح أهالي المنطقة يتميزون بحفظهم القوي للقرآن الكريم. وقد أدرك السلطان عبد الكريم أن اللغة العربية تفضل اللغات فصاحةً، ولها مكانة في الدين الإسلامي الذي يدعو إليه، ورأى أنها لغة علم وثقافة وحضارة، مما يجعل مثقفيها يقومون بدور فعال في نهضة الأمة وتقدمها، فقام بإقناع الناس بأن اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، وأن المحافظة عليها وإتقانها يعتبر حفاظًا على الدين وتوحيدًا للأمة. وإيمانًا بهذا المبدأ، دأب عبد الكريم ومن جاء من بعده من سلاطين المملكة على أن تكون اللغة الرسمية في البلاد هي اللغة العربية، ومن ثم كانت لغة الحديث والسمر، بل كانت العربية الفصحى لغة الثقافة والتعليم، تُلقى بها الدروس والمواعظ والإرشادات والخطب الدينية والسياسية.

ورغم أن العربية موجودة من قبل تأسيس هذه المملكة الإسلامية، إلا أن مجيء عبد الكريم المصاحب للإسلام عزز من وجودها في المنطقة التي كانت تعرف العربية العامية؛ لكن بفضل الله سبحانه وتعالى، ثم بفضل سلاطينها الدعاة الذين تمسكوا بالقرآن الكريم، حتى سهل عليهم استخدام العربية الفصحى في الإدارة والتعليم التقليدي، فوجدت الفصحى مكانتها في وسط المجتمع؛ حيث أصبحت لغة التخاطب في الأماكن العامة والخاصة، كمجالس القضاء والمساجد، والخطب الدينية والسياسية، والرسائل الملكية الديوانية، ومن ثم انتشرت اللغة العربية العامية التي تعتبر أقرب العاميات العربية إلى العربية الفصحى، وهي الوسيلة الوحيدة التي يتفاهم بها أطياف المجتمع، فكانت لغة المعاملات كالبيع والشراء وضرب الحكم والأمثال.

وقد اهتمت وداي بالتعليم وحفظ القرآن ودراسة العلوم الشرعية، وإرسال طلابها إلى الأزهر الشريف، حتى أقاموا فيه رواقًا خاصًا سُمّي برواق صليح، والقيروان، فبرز منهم العلماء والفقهاء، ونسخوا الكتب والمصاحف بالخط المغربي، هذا بجانب وجود علماء من مصر والسودان بوسط إفريقيا.

وقد بدأ تأثير الأزهر بعودة خريجيه في الفترة (1943–1956)؛ حيث أقاموا المعاهد ونظموا حلقات الدروس والمساجد، وخير مثال لذلك الشيخ «محمد عليش عووضة»، الذي تخرج في الأزهر الشريف وأسس معهدًا علميًا بأبشة على غرار المعاهد الأزهرية، منهجًا وإدارة. والتزم المسلمون عامة، وأهل وداي خاصة، المذهب المالكي، وأيضًا الطريقة التجانية، ويبدو أنهم تأثروا في ذلك بالمغرب العربي (عربي، 2003، ص324).

وتأثر شعب دار وداي باللغة العربية جاء نتيجة لتمسكهم بالقرآن الكريم الذي أنزله رب العزة والجلال بأفصح لسان. فعمدوا إلى دراسته ومدارسته وتفسيره وما يتعلق بفهمه كعلوم اللغة العربية،

وقاموا بتعليمه للصبية؛ حتى أصبح حفظ القرآن الكريم وتعليمه ظاهرة اجتماعية في أرجاء المملكة وما جاورها، بأن تعليم الناشئة القرآن الكريم وتحفيظه شعارًا أساسيًا لهم، بل سمة من سمات المنطقة. فعندهم التربية أساسها هذا الشعار. ومن مظاهرهم التي ساعدت على تطور اللغة العربية محبتهم لسيد الخلق وصفوته الذي أوتي جوامع الكلم، فذهبوا إلى دراسة سيرته العطرة، وعلموا بأنه الإنسان الكامل وأفضل الخلق على الإطلاق، وباتوا يربون أولادهم على محبته . صلى الله عليه وسلم . التي تعتبر مظهرًا من مظاهر الإيمان، وسعوا إلى تجسيد سنته في سلوك وعمل، وإحياء سنته بإقامة الشعائر الإسلامية، ومن ثم تمكن حب النبي محمد . صلى الله عليه وسلم . في نفوس أهالي المنطقة وحب أصحابه، فتراهم يسمون بأسماء الأنبياء والرسل والصحابة وأمهات المؤمنين، يتصدرهم اسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم بامتياز!

وتفننوا في تدريس السيرة، فتناولوها نثرًا وشعرًا، ومعلوم أن الشعر يخاطب العواطف والأحاسيس. ومن هنا تميزت المنطقة عن غيرها بإقامة المديح في مناسبات مختلفة، ويتعين أكثرها عند ذكرى مولده صلى الله عليه وسلم، وقد تُلقى فيه القصائد بالعربية الفصحى، ويتذوقها الجميع، وهذا مما جعل لهم صلة قوية بالفصحى، زيادة على ذلك قراءتهم للقرآن الكريم وسماعهم المتكرر لخطب الجمعة والعيدين. هكذا كانت المملكة في عصر الممالك إلى أن دخل الاستعمار الفرنسي البلاد وقضى على الممالك وأقام نظامه بدلًا عنها، وقام بعرقلة التعليم، وقتل وتشريد العلماء ونفيهم إلى خارج البلاد ومضايقتهم، الأمر الذي جعل التعليم العربي يتقهقر إبان فترة الاحتلال الفرنسي.

رابعاً: دور التعليم التقليدي في الحفاظ عليها

عرَف الفكر التربوي الإسلامي منذ اللحظات الأولى لبدء رسالة الوحي على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت دار الأرقم بن أبي الأرقم أول مؤسسة تربوية تعليمية يأخذ الصحابة منها المعين، ويعلمهم النبي صلى الله عليه وسلم آيات القرآن الكريم التي تنزل عليه، ثم تطور إلى الكُتّاب والمسجد والمكتبة وبيوت الحكمة ودور العلم وحوانيت الورّاقين ومجالس العلم والمناظرات ومنازل العلماء ومجالس الفتوى ومراكز الصوفية وغيرها، إنها شمولية التعليم في الإسلام (النظيف، 2016، ص198).

اهتمت الممالك الإسلامية في تشاد بالتعليم العربي، وكان التعليم العربي مزدهرًا ومنتشرًا في مختلف الممالك المذكورة، ويذكر المؤرخون أن التعليم العربي في تشاد «بدأ بدخول الإسلام فيها على وجه التحديد عام 46هـ/666م، عندما وصل عقبة بن نافع إلى جبال كوار، وهي منطقة تابعة لمملكة "كانم" في تلك الآونة، ومن هذا التاريخ بدأت الثقافة العربية تنساب مع الانتشار الطبيعي للإسلام حول بحيرة تشاد» (الأمين، 2003، ص554).

وقد شهدت بحيرة تشاد ازدهارًا علميًا وثقافيًا وحضاريًا، ويذكر المؤرخون أيضًا أن مملكة كانم قد شهدت نظامًا تعليميًا على غرار التعليم الذي كان سائدًا في بلاد المشرق والمغرب، فأنشأت دور التعليم في المملكة، وتعددت تلك الدور وتنوعت، ولقد سارت تلك الممالك الإسلامية الأخرى على المنهج نفسه، وظلت تلك المؤسسات تؤدي دورها التعليمي والتربوي بكل قوة، وما زالت هذه المؤسسات، كالمسجد، والمسيج أو المسيك، والخلاوي القرآنية، ودور العلماء، وقصور السلاطين والأمراء، وكبار التجار، منتشرة بكثرة في المجتمع التشادي، وتؤدي دورها في الحفاظ على الثقافة الإسلامية واللغة العربية (برمة، 2019، ص. 138). وقد حذت «أبشة»، عاصمة مملكة وداي، حذو كانم في التعليم والتربية، وأصبحت مركزًا ثقافيًا وعلميًا وحضاريًا منذ تأسيسها من قبل السلطان محمد شريف عام 1850م، وذلك بسبب وجود خيرة ونخبة من العلماء والفقهاء والمثقفين الذين يتمتعون بوعي حضاري وثقافي، بفضل السياسة التي اتخذها سلاطين هذه المملكة والعلاقات الثقافية التي تربطها بمختلف عواصم العالم الإسلامي ومراكز العلم، وهذا الوعي الحضاري جعل التعليم التقليدي قبل الاستعمار عنصرًا أساسيًا في الحفاظ على الموروث الثقافي الإسلامي واللغة العربية (زايد، 2017، ص202).

وقد حظي التعليم العربي التقليدي بأهمية كبرى في عصر الممالك، حين كان لهم نظام تعليمي تربوي يقوم على أساس تدريس المواد الأساسية كالقرآن والسنة والفقه وعلم الكلام وعلوم اللغة العربية الأساسية وعلم الفلك، وكانت أساليبهم في التعليم تقوم على التلقين والحفظ والسماع. «ويذكر المؤرخون أن مملكة كانم قد شهدت نظامًا تعليميًا على غرار التعليم الذي كان سائدًا في بلاد المشرق والمغرب، فأنشئت دور التعليم في المملكة وتعددت تلك الدور وتنوعت، ولقد سارت الممالك الإسلامية الأخرى على نفس المنهج، وظلت تلك المؤسسات تؤدي دورها التعليمي والتربوي بكل قوة وما زالت منتشرة بكثرة في المجتمع التشادي» (الأمين، 2003، ص554).

ويرجع الفضل إلى الحضارة الإسلامية باعتبارها فاتحة عصر الحركة الإسلامية في تلك الممالك، ودعوة الإسلام إلى أهمية العلم والتعليم منذ نزول الوحي على الرسول الأعظم، رسول رب العالمين، الذي أُرسل رحمةً للعالمين، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

المبحث الثاني: حالة اللغة العربية في ظل الاستعمار

أولا: دخول الاستعمار الفرنسي في تشاد

الاستعمار كلمة مشتقة من الفعل: عمَّر، يُعمِّر، إعمارًا، أعمره المكان واستعمره فيه، جعله يعمره، وأعمر الأرض: وجدها عامرة. والعمارة: ما يُعمَر به المكان. والاستعمار من الفعل: عمر يعمر، أي: ملأ فراغًا أو أرضًا لم تكن آهلة. وبدأ تغلغل المستعمر الفرنسي في الأراضي التشادية،

وبخاصة السيطرة الكاملة على البلاد عام 1920م، واعتُبرت منطقة تشاد مستعمرةً من المستعمرات الفرنسية رسميًّا بمرسوم 1920/3/17م (الماحي، 1982، ص. 154).

قامت فرنسا بإرسال مجموعة من رجالها لغرض الاستطلاع وجمع معلومات عن المنطقة، فأول من وصل من رجال الاستطلاع الفرنسي إلى هذه المنطقة هو بول كرامبل، الذي وصل إلى منطقة تشاد في 1891/4/24م قادمًا من إفريقيا الوسطى؛ حيث كان ينوي الوصول إلى مملكة «وداي»، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليها؛ حيث قُتل هناك مع بعض مرافقيه على يد القوات التابعة لمملكة «وداي» (الماحي، 1982، ص119).

وقد استفاد المستعمر الفرنسي من المعلومات التي حصل عليها من المنطقة، «وعندما تمكن رجال الاستطلاع الأوروبي من بلوغ بحيرة تشاد ونشروا نتائج استطلاعاتهم في القارة الإفريقية، فحصلت فرنسا على معلومات كافية عن المنطقة من تصور كامل شامل عن البحيرات والسهول والمنخفضات والهضاب والصحاري، وعن موارد البلاد الاقتصادية، وكل ذلك مهد الطريق أمام فرنسا لاحتلال دولة تشاد» (قراءات إفريقية، 1425هـ، ص204).

وعلى الرغم من الجهود المبعثرة في جبهات القتال المختلفة بسبب التناحر الذي كان بين الممالك الإسلامية وقوات «رابح»، ظل التشاديون يقاومون التغلغل الفرنسي في البلاد، ولا يُفهم من هذه العوامل أن الشعب التشادي قد استسلم استسلامًا نهائيًّا للمستعمر؛ حيث سجل التاريخ أنه قاوم بقدر ما يستطيع، إلا أن الكفة غير المتوازنة بين قدرة فرنسا والشعب التشادي مكَّنت من نجاح المستعمر في نهاية الجولة، واستطاع السيطرة عليها كاملة عام 1920م (قراءات إفريقية، 1425هـ، ص204).

وقبيل استقلال تشاد، صدر دستور الرابطة الفرنسية بتاريخ 4 أكتوبر 1958م، الذي ضم كلًّا من الغابون، والكونغو الأوسط، وأوبانغي شاري، وتشاد، وصوَّتت بموجبه هذه الدول لصالح الانضمام إلى الرابطة الفرنسية بدلًا من الاستقلال التام عن فرنسا، فأصبحت هذه الدول تتمتع باستقلال ذاتي في إطار الرابطة الفرنسية؛ إلا أن هذا الدستور لم يلتفت إلى المكونات الثقافية والحضارية المكتسبة لشعوب المنطقة خلال تاريخها الطويل، وقد صدر الدستور بتوقيع الرئيس الفرنسي شارل ديغول، ولم يُشر فيه إلى مسألة اللغة الرسمية لهذه الدول؛ وإن كان يُفهم من العنوان أن اللغة الرسمية هي لغة الرابطة، أعني الفرنسية (مدني، ص71).

ثانيا: التحديات التي واجهت اللغة العربية في ظل الاحتلال الفرنسي

تتمثل تحديات اللغة العربية في مواجهة محاربة الاحتلال الفرنسي للغة العربية في عدد من الجوانب، نذكر منها ما يلي:

1 . فرنسة التعليم في المرحلة الابتدائية

«وهذه استراتيجية وهدف من أهداف الفرنسيين في تكوين عناصر وسيطة بينهم وبين الشعب عن طريق المدرسة» (محمد، ص20). وجعلوا اللغة العربية أجنبية في بقية المراحل الأخرى، غير أن اللغة الفرنسية التي أراد الفرنسيون نشرها هي لغة الشارع، أي العوام، والأكثر استعمالًا وشيوعًا، وليست اللغة الفرنسية العلمية.

2 . فرنسة الإدارة ورسائل الإعلام والثقافة

بفرض محو كل الآثار الدالة على الهوية الوطنية، كما حاولت سياسة الفرنسة السعي إلى تغيير وجه التشاديين من خلال تغييرها لأسماء المدن والقرى والأحياء والشوارع والساحات بأسماء فرنسية، كفور لامي بدلًا من شاري باقرمي (أنجمينا) الحالية، وفرشمبول بدلًا من سار الحالية، وغيرها من الأسماء.

3 . محاربة التعليم العربي الحر

الذي يقوم بنشر اللغة العربية، والتي استعملها المجتمع التشادي كوسيلة علم وتعلُّم، فأقام التشاديون المدرسة العربية داخل بلادهم، واعترف بنموها وتطورها الرحالة الأوروبيون (بات، ودينهام، وناختيغال وغيرهم)، ووجدها الفرنسيون حينما استولوا عليها، وسموها بالمدارس القرآنية، ولهم مقاصدهم بتحديد المدارس في المجتمع التشادي بالقرآنية، ولكن المهمة الثقافية لهذا الاعتراف هي أن هذه المدارس تدرس باللغة العربية، ولا تتوقف عند القرآن الكريم فقط؛ بل تشمل علومًا ثقافية أخرى يوليها المجتمع أهمية كبيرة، وتؤهل من استطاع من أبنائه أن يلتحق بأرقى الجامعات التي تدرس باللغة العربية، كالأزهر الشريف، والقيروان، والزيتونية، وأم درمان (أيوب، 2016، ص135).

4 . اضطهاد المعلمين الأحرار في سلك التعليم العربي وسجنهم ونفيهم

بقصد صرفهم عن العمل في نشر التعليم العربي في تشاد، فخلَّف الاستعمار آثارًا سلبية بارتكابه الجريمة البشعة التي تمثلت في مذبحة الكوكب الشهيرة التي كانت في دار وداي؛ فقد حصدت المذبحة عددًا هائلًا من أرواح العلماء الأفذاذ الذين ينبعث من خلالهم نور العلم والمعرفة والأدب، وبعدها توقفت حركة التعليم وخفَّ نشر الدعوة الإسلامية، ومن ثم قام رجال الاستعمار بإغلاق جميع المدارس والحلقات العلمية (أبو سحر، 2018، ص121).

قد واجهت تشاد إبان فترة الاستعمار الفرنسي العديد من التحديات، بعضها نتج من الصبغة الجديدة التي أحدثها الاستعمار، وبعضها له علاقة بمظاهر الانفتاح والاتصال بالغرب الذي ينبع من الصراع الدائر بين الثقافات والكيانات الحضارية الكبرى. ولعل أخطر تحدٍّ يواجه العربية في عقر

دارها هو تحدي القابلية للتحدث بالفرنسية، بالإغراء أو التقريب، فالقابلية للتفرنس أصبحت ميزة تتفاخر بها الطبقة المثقفة بالفرنسية؛ ولذلك قام المستعمر بالتصدي للغة العربية ومحاربتها بكل أشكال العرقلة والتحدي، فـ«وضع الخطوط والقوانين والقواعد التي تحد من استخدامها والتمسك بها، وفي المقابل فرض الفرنسية لغة رسمية كبديل، وأحاطها بكل عناية وتشجيع من أجل دفع الناس إليها للتحدث بها، فأصبحت المدارس الفرنسية في أذهان الناس مرتبطة بالوظيفة والمكانة المميزة في المجتمع والوصول إلى المناصب العليا في الدولة، ولم تتأخر فرنسا في جني ثمار تعليمها؛ حيث تكونت من خلالها نخبة من أبناء المسلمين مشبعة بثقافتها، وضعف ارتباطهم بثقافتهم الإسلامية» (عبده، 2003، ص684). ومثل هذه الفرقة ما زالت حتى الآن تقف عقبة في تطور وتقدم العربية.

ومن هنا بدأ يزداد استخدام اللهجات العامية العربية بدلًا من استخدام الفصحى السائدة في الممالك الإسلامية، وبالتالي وقف المستعمر ضد العربية الفصحى بعد أن فشل في فرنسة المجتمع الذي تأصلت فيه العربية منذ قرون طويلة، ففكر في إقصاء الفصحى وسعى في تمكين اللغة الفرنسية والدعوة إلى العامية، وهذا عبر الإعلام والتعليم وشريحة المثقفين ورجال الدولة، واستُخدمت الفرنسية في المؤتمرات والندوات وبين شريحة الجنود، كما أصبحت لغة التقارير والمراسلات الرسمية بدلًا من العربية الفصحى.

وحاول المستعمر تنفيذ خطته اللغوية التي تسعى إلى فرنسة المجتمع التشادي، إلا أنه لم يستوعب جميع الشرائح ولا الشارع التشادي كما كان في الجزائر وتونس والمغرب مثلًا، ولكنه استطاع إبعاد الفصحى عن مواطن القرار، وهو ما شكَّل عقبة في مستقبل دعم اللغة العربية في تشاد، وهي فرنسة إدارة الدولة، كالدوائر الحكومية، ولغة المدارس النظامية الحكومية، ولغة المراسم الرسمية للبلاد.

ولم تقتصر دوافعهم على اللغة فحسب، وإنما وصلت بها المحاربة إلى كل ما يصل بهوية المواطن، وطمس ثقافته ومعالمه، وقطع جذوره التاريخية وإبعاده عن ماضيه، واستبدال حضارته وتذويب شخصيته الإسلامية والعربية والإفريقية وتحويلها إلى فرنسة العقل واللسان، دون فرنسة التفكير العلمي الذي يقوم على توظيف العلم والموضوعية والابتكار، لا الفرنسة التي تدعو إلى التفرقة والتجزئة والكراهية وإخفاء الحقائق وطمس الهوية.

ويشير الدكتور حمدي محمد أحمد إلى بعض دوافعهم التي تسعى إلى محاربة الثقافة الإسلامية التي لها علاقة وطيدة باللغة العربية: «أن الاستعمار قد أحدث اضطرابًا واضحًا في حياة المسلمين، وكان عليهم وبالًا ودمارًا، وخلق عندهم ليس فقد ازدواجًا لغويًا ودينيًا وثقافيًا؛ ولكن خلق عندهم أيضًا ما يشبه الازدواج في الشخصية؛ لأنهم تأرجحوا ما بين الاتجاهين أمام وخلف (الماضي والحاضر)،

وأصبحوا غير قادرين على تحقيق أي تقدم من خلال أذواقهم الثقافية والعلمية المتواضعة» (عبده، 2003، ص686).

ظل الشعب التشادي بكل قواه يرفض الفرنسية في أول الأمر، مما جعل الفرنسيين يتخذون التدابير اللازمة والخطط لتعزيز الثقافة الفرنسية عن طريق الازدواجية، فلجؤوا إلى أساليب تساعدهم على تمكين المواطن التشادي من الفرنسية، ولذلك اتخذوا طرقًا عدة، منها:

- فرنسة التشاديين عن طريق التعليم في المدارس العامة التي أنشأها المستعمر، والتي من أهدافها غرس قيمه.
- فرنسة التشاديين عن طريق الإدارة الحكومية؛ ليصبح الظاهر والباطن كله في قالب واحد، ونقصد بالظاهر: المتفرنسين الذين يعملون في تلك الإدارات. أما الباطن، فنقصد به الإدارة نفسها، لما تسير قوانينها على نظام الحكم الفرنسي.

أما التعليم الذي من أجله يسعى إلى فرنسة المواطن، فلم يكن على الوجه المطلوب، ولا على حقيقة العلم والحضارة التي تخدم البشرية ويستفيد منها الإنسان، ولكن كلمة حق أُريد بها باطل. «ورغم المعارضة القوية التي أبداها المواطنون المسلمون في الشمال لاستخدام اللغة الفرنسية كلغة تعليم وتثقيف وحيدة، إلا أن الجهود المبذولة من قبل المستعمر كانت قوية ومتواصلة ومدعومة من قبل الإدارة. وهذا بعد عزوف المسلمين ومقاطعتهم للتعليم الفرنسي الذي يُؤدَّى باللغة الفرنسية، فرض المستعمر الفرنسي التعليم الإجباري على أبناء الملوك والسلاطين والأعيان» (زايد، 2017، ص. 319). ومن ثم قامت بمحاربة التعليم العربي من أجل إفساح المجال للغة الفرنسية وتمكينها.

ثالثا: تهميش العربية في الإدارة والتعليم

ارتبط التعليم بالدين الإسلامي ارتباطًا شديدًا في تشاد؛ بل في كل إفريقيا جنوب الصحراء، انتشر الإسلام وانتشرت لغته، ويكون هذا الانتشار قويًّا في شمال ووسط تشاد، قبل أن يختلط بغيره من اللغات المحلية، ويخف تدريجيًّا في الجنوب نتيجة أمرين: أولهما البعد عن مناطق دخول الإسلام والعرب، والثاني هو دخول المستعمر من الجنوب حاملًا سيفه ودينه ولغته، وهكذا كان حال اللغة والتعليم في تشاد (سعودي، 2003، ص301).

وبمجرد توغل الاحتلال الفرنسي في تشاد منذ عام 1900م، قام بحرب شرسة ضد الممالك الإسلامية في تشاد ومؤسسات التعليم للقضاء على الحضارة الإسلامية واللغة العربية؛ حيث وظف كل إمكانياته المادية والمعنوية والعسكرية لتحقيق مآربه التي تمثلت في إنشاء مدارس فرنسية لتحل محل المدارس العربية والإسلامية، وتأسيس مدارس تبشيرية ومحاربة العلماء المسلمين (برمة، 2019، ص119).

ولقد استخدمت السلطات الفرنسية في حربها على الثقافة الإسلامية البعثات التعليمية والمنح الدراسية إلى فرنسا كوسيلة لصناعة الزعماء والقادة المدنيين والعسكريين، وتأهيلهم في شتى نواحي الحياة العلمية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية من أجل خلافة المستعمر بعد الاستقلال الصوري المزيف؛ حيث تربت هذه القيادات على احترام الاستعمار وطاعته العمياء، وحمل ثقافته الداعية إلى الدمار والتفرقة، وأقنعتهم بأن الشعب يتوقف على سلوك منهج المستعمر، وانتهاج طريقه في التعامل مع الدين والأخلاق، فعادت من هناك وكلها إقناع وتصميم في فصل الدين عن الدولة، وعلمنة النظم التعليمية، وتمجيد وتقديس لغة المستعمر باعتبارها، في زعمهم، لغة التقدم والعلوم والتكنولوجيا، وأصبح هؤلاء يرددون المبادئ ويرفعون الشعارات التي لُقِّنت لهم من قبل المستعمر (برمة، 2019، ص206).

وعندما أراد المستعمر الفرنسي فرنسة التشاديين، ركَّز على محو اللغة العربية والثقافة الإسلامية والعادات والتقاليد المحلية من مظاهر الحياة الاجتماعية؛ لأن أساتذة الاستعمار الفرنسي المخططين له يدركون جيدًا خطورة الدور الذي تقوم به اللغة العربية على التشاديين. «وبعد ستين عامًا من الاستعمار لا يصل عدد المترددين على مدارس المستعمر 2% من جملة سكان تشاد» (عبده، 2003، ص689).

السياسة الفرنسية التعليمية في تشاد، لا سيما إبان فترة الاحتلال، لم تُعطِ التعليم بصورة عامة أهمية كبيرة، ولم تتبلور سياسة واضحة المعالم؛ وإنما تهدف من وراء ذلك إلى إحداث الصراع اللغوي والثقافي، لا سيما المواجهة التي أولتها فرنسا في محاربة اللغة العربية الفصحى وإقصاء الثقافة العربية الإسلامية. وعلى ذلك قامت سياستها الاستعمارية في ميدان التعليم على تحطيم التعليم التقليدي السائد في المجتمع، والذي كان مصدر قلق للفرنسيين باعتباره كان خطرًا على المقاومة ومناهضة الاستعمار، فغدت في مضايقته عن طريق العلماء، ووسَّعت سياستها على تحطيمه بمختلف الوسائل.

يقول أحمد بركة الله: «فصل الإسلام الأسود عن جذوره العربية وعن بُعده الديني وتكويناته السياسية والاجتماعية، ومن ثم توجيهه بصورة أفضل وقواعد جديدة، وأخيرًا تثبيت وإدامة الانشقاقات بين مختلف المجموعات المسلمة» (سعودي، 2003، ص301).

واستمرت المعاملة التهميشية والمعادية لمثقفي اللغة العربية منذ دخول الاستعمار وحتى بعد الاستقلال، مع وفرة وكثرة أعداد المثقفين باللغة العربية الذين يحصلون على شهادات علمية من أرقى الجامعات في العالم العربي، ثم يعودون إلى بلادهم للمساهمة في دفع عجلة التنمية والتقدم، مفعمين بالآمال والحيوية؛ إلا أن الصدمة والخيبة تسود مشاعرهم بسبب الرفض الذي يواجهون به من قبل السلطات الحكومية، وعدم إتاحة الفرصة لهم للمشاركة في إدارة الدولة على حسب مستوى الشهادات التي حصلوا عليها (زايد، 2017، ص323).

الخاتمة:

النتائج:

توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

1- أثبتت الدراسة أن اللغة العربية في تشاد كان وجودها سابقًا لظهور الإسلام وسابقًا لدخوله في تشاد، ولكن الإسلام قوَّى شوكتها وعزَّز من وجودها.

2- توصلت الدراسة إلى أن وضع اللغة العربية في الممالك الثلاث: كانم برنو، وباقرمي، ووداي، كان وضعًا جيدًا، تمكَّنت فيه اللغة العربية وعاشت عصرًا ذهبيًّا، وكانت اللغة الرسمية في البلاد هي اللغة العربية، لغة الثقافة والتعليم والإبداع.

3- من الملاحظ أن اللغة العربية مرت بأزمة إبان فترة الاستعمار الفرنسي، وصلت بها إلى تجسيد صراع لغوي وثقافي تتجاذبه أطراف عدة: العربية الفصحى، واللغة الفرنسية الأجنبية، والعربية العامية، واللغات المحلية المختلفة.

4- استطاع المستعمر الفرنسي إبعاد اللغة العربية الفصحى من الدوائر الحكومية والإعلام الرسمي، وجعل اللغة الرسمية هي اللغة الفرنسية، وذلك في فترة الاستعمار.

5- إن الاستعمار الفرنسي في تشاد لم يكن مجرد هيمنة سياسية؛ بل صاحب مشروع لغوي وثقافي استهدف إعادة تشكيل الهوية المجتمعية من خلال فرض اللغة الفرنسية وتهميش اللغة العربية، مما أدى إلى إضعاف حضور العربية في مؤسسات الدولة والتعليم النظامي.

6- الكثير من الشعب التشادي لم يترسخ فيه استخدام واستعمال اللغة الفرنسية بصورة عامة؛ بل العكس، فإن اللغة العربية تربعت على عرش الغلبة في الاستعمال اليومي بفضل تعزيزها في المجتمع التشادي، وبفضل القرآن الكريم الذي يُعد العامل القوي في الحفاظ على اللغة العربية. وهذه اللغة أصبحت إرثًا حضاريًّا وهوية، رغم تعدد اللغات، وما زالت منذ عهد الممالك الإسلامية وعهد الاستعمار وما بعده وإلى الآن لغة التفاهم بين أطراف المجتمع التشادي.

7- إن العربية هي أداة تعبير لكثير من الشعب التشادي، وهي مستودع آرائه وأفكاره ووعاء لثقافته، وإذا نظرنا إلى وضعها في تشاد، فإننا نجدها قد مرت بمراحل عدة، منها:

1) مرحلة التمكين والتطور: وذلك في عصر الممالك الإسلامية، حيث عاشت عصرًا ذهبيًّا؛ لأن الإسلام في ذلك الوقت قوَّى شوكتها.

2) مرحلة الصراع اللغوي والثقافي والتأزم: وذلك عندما عانت البلاد من توغل الاحتلال الفرنسي فيها، الذي يسعى إلى تدمير اللغة العربية، وتمثل ذلك في قتله للعلماء المسلمين وتشريدهم، وحرق ونهب مخطوطاتهم، وكل هذا بقصد السيطرة وإحلال لغته وثقافته محل اللغة العربية.

8- استطاع علماء المسلمين إبطال الكثير من المخططات التي تهدف إلى إضعاف اللغة العربية وتذويبها، ولم يستطع المستعمر الفرنسي إقصاءها عن المجتمع التشادي، وإن نجح في هذه الفترة في جعل لغته هي الرسمية للبلاد، فلم ينجح في فرنسة لسان المواطن.

9- أن اللغة العربية مرت بأزمة إبان فترة الاستعمار الفرنسي، الذي وصل بها إلى تجسيد صراع لغوي وثقافي تتجاذبه أطراف عدة: العربية، واللغة الفرنسية الأجنبية، والعربية العامية، واللهجات المحلية المختلفة.

التوصيات:

توصي الدراسة بالآتي:

1- وضع حلول وخطط مستقبلية من خلال معايير لدراسة العربية وتطويرها من الحالة التقليدية القائمة على الحفظ والتلقين إلى التعليم التفاعلي الحديث القائم على مهارات التفكير.

2- إنشاء مراكز لدراسة اللغات التشادية والتخطيط اللغوي.

3- الاهتمام بدراسة القرآن الكريم وتطوير الخلاوي القرآنية؛ بحيث تكون الدراسة فيها بمنهجية تربوية تواكب روح العصر؛ أي: مصاحبة لبرامج ترفيهية، وإقامة مراكز تدريبية مهنية داخل الخلاوي القرآنية.

4- أن يكون تعليم العربية مسؤولية جماعية مشتركة بين جميع أفراد المجتمع.

5- تكثيف جهود الحكومة في تطبيق الثنائية اللغوية في الواقع.

6- أن يقيم المجمع اللغوي في تشاد سنويًّا وبشكل دوري مؤتمرًا حول قضايا اللغة العربية في تشاد وإفريقيا.

قائمة المصادر المراجع:

1) ابن جني، أبو الفتح عثمان. (د.ت.). الخصائص. تحقيق: محمد علي النجار (ط. 3). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

2) ابن خلدون، عبد الرحمن. (د.ت.). المقدمة (ط. 4). بيروت: دار الكتب العلمية.

3) ابن منظور، جمال الدين بن مكرم. (2017). لسان العرب (ط. 1). بيروت: دار صادر.

4) أبو سحر، محمد أحمد. (2018). تاريخ الأدب العربي في تشاد (ط. 1). [مكان النشر غير محدد]: مطبعة سلسبيل الحديثة.

5) أبو سحر، محمد أحمد. (2018). مذبحة الكوكب في تشاد. [مكان النشر غير محدد]: مطبعة سلسبيل الحديثة.

6) أحمد، إبراهيم برمة. (2019). أثر الاستعمار الفرنسي في الصراع الثقافي في تشاد (ط. 1). الخرطوم: دار المصورات للنشر.

7) أنقاري، محمد شرومة. (2004). المظاهر الحضارية لمملكة وداي الإسلامية [رسالة ماجستير غير منشورة]. طرابلس: جمعية الدعوة الإسلامية بالجماهيرية العربية الليبية.

8) أيوب، محمد صالح. (2016). مظاهر الثقافة العربية في تشاد المعاصرة وتحديات العولمة (ط. 1).

9) بوبة، حسن. (د.ت.). الإيجابيات والسلبيات للإدارة الفرنسية نحو اللغة العربية في تشاد. في: ندوة اللغة العربية في تشاد: الواقع والمستقبل. طرابلس: منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

10) الدكز، فضل كلود. (1998). الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لإمبراطورية كانم (ط. 1). طرابلس: كلية الدعوة الإسلامية.

11) رماد، محمد الأمين حسين. (2003). انتشار التعليم العربي الأهلي في تشاد. في: ندوة اللغة العربية في تشاد: الواقع والمستقبل. طرابلس: منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

12) زايد، أحمد بركة الله. (2017). الصراع الثقافي وآثاره في تشاد (ط. 1).

13) سعودي، محمد عبد الغني. (2003). الموقع الجغرافي لتشاد وأثره في تكوينها العام مع الاهتمام باللغة والدين. في: ندوة اللغة العربية في تشاد: الواقع والمستقبل. طرابلس: منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

14) صالح، علي محمد. (د.ت.). فروليا والكفاح الشعبي في تشاد. [مكان النشر غير محدد]: مطبعة مهر كنو.

15) الصالح، مصلح. (1999). الشامل: قاموس العلوم الاجتماعية. القاهرة: دار عالم الكتب.

16) عبده، حمدي محمد أحمد. (2003). المجتمع التشادي والثنائية العربية الفرنسية. في: ندوة اللغة العربية في تشاد: الواقع والمستقبل. طرابلس: منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

17) عبران، عاطف. (2018). الهوية الوطنية: أرضية ومرجعية ثقافية، الأمن الثقافي واللغوي والانسجام الجمعي، الجمهورية الجزائرية. الجزائر: المجلس الأعلى للغة، منشورات المجلس.

18) عبيد، كمال محمد. (2003). علاقة الممالك التشادية بمراكز الحضارة الإسلامية. في: ندوة اللغة العربية في تشاد: الواقع والمستقبل. طرابلس: منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

19) عربي، بشير بشير. (2003). علاقة الممالك التشادية بمراكز الحضارة الإسلامية في العالم الإسلامي. في: ندوة اللغة العربية في تشاد: الواقع والمستقبل. طرابلس: منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

20) فضل، محمد مدني. (2018). رسمية اللغة العربية في تشاد: الأسس والمرتكزات. دراسات إفريقية.

21) قراءات إفريقيا. (1425هـ). مجلة علمية فصلية متخصصة في شؤون القارة الإفريقية، العدد الأول.

22) الماحي، عبد الرحمن عمر. (1982). تشاد من الاستعمار حتى الاستقلال. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

23) الماحي، عبد الرحمن عمر. (1998). مساهمة القوافل التجارية في نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية في منطقة الساحل. بحث مقدم لندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار العربية.

24) معمرو، حمد عبد الله بن. (2003). عوامل انتشار اللغة العربية في تشاد. في: ندوة اللغة العربية في تشاد: الواقع والمستقبل. طرابلس: منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

25) ناختيغال، غوستاف. (د.ت.). مملكة وداي. ترجمة: ناديا كركري. [مكان النشر غير محدد]: مركز المنى الثقافي.

26) النظيف، محمد يوسف. (2016). محطات في الأدب العربي التشادي (ط. 1). القاهرة.

27) ولد سيدنا، محمد المختار. (2003). انتشار التعليم العربي الأهلي في تشاد في عهد الاحتلال الفرنسي. في: ندوة اللغة العربية في تشاد: الواقع والمستقبل. طرابلس: منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

28) يوسف، نور؛ وعيسى، ألاء. (2025). اتجاهات أبناء الثقافة الثالثة من العرب نحو تعلم اللغة العربية لأغراض دينية. مجلة الدراسات المعاصرة في التربية وعلم النفس, 1(3). https://doi.org/10.56989/453w3414